فريدريش شلر

ما المراد بتاريخ العالم
ولماذا ندرسه ؟

Was heisst und zu welchem Ende studiert Man Universal geschichte ?
Eine akademische Antrittsrede

ترجمة عربية عن النص الوارد فى المجلد الثامن من :

Sehillers Werke, herausgegeben von Ernst Jenny. pp. 433-458.

تمهيد :

— نشرنا فى المجلد الأول من هذه المجلة قطعة للفيلسوف كنت عن التاريخ العالمى ، وننشر فى هذا العدد قطعة لتلميذه الشاعر المشهور شيلر فى نفس الموضوع ، وقد نقلها للغة العربية عن الأصل الألمانى الدكتور حسين مؤنس .

— وينبغى أن تقرأ القطعتان الواحدة بعد الأخرى ، فقد تبع شيلر أستاذه فى نظريته فى التاريخ ، كما تأثر به كثيراً فى نظريته فى الفن . غير أن تلك المتابعة وذلك التأثر لم يمنعا شيلر من أن يضيف إلى رأيه فى التاريخ ورأيه فى الفن أشياء جديرة بالإشارة ، ومرجع ذلك أن شيلر عمل أستاذاً فى التاريخ فى جامعة فينا ، ثم هو شاعر موهوب ، بينما كنت اقتصر على الفلسفة ، فلم يضع شعراً ولم يعالج التاريخ بحثاً أو تعليما .

— وآراء شيلر فى التاريخ المنشورة فى هذا المقام مستخرجة من محاضرته الافتتاحية بمدينة فينا سنة ١٧٨٩ ، وموضوعها التاريخ العام وقيمته . ويرى شيلر ألا تقدم يرجى لتلك الدراسة إلا إذا تحقق للباحث شرطان ؛ الأول النظرة الفلسفية ، والثانى التعمق فى موضوع الدراسة . ويختلف المؤرخ الفيلسوف عن العالم الطبيعى فى أمر هام ، هو أن لهذا موقف من الطبيعة غير موقف ذاك من التاريخ . فالطبيعة التى يدرسها العالم هى شىء خارجى بالنسبة له ، وأما التاريخ للمؤرخ فهو عالم من المعانى يوغل فيه بقوة الفهم والمحبة .

ـ والتاريخ العام بالنسبة لشيلر هو تاريخ الارتقاء من الوحشية للمدنية ، وهو فى هذا يتفق مع كنت ، إلا أنه بينما كنت يرى التاريخ واصلا للغاية فى مستقبل بعيد ، فإن شيلر يجد تلك الغاية فى حاضر الإنسانية نفسه ، فى لغاتها وشرائعها ونظمها وعاداتها كما هى قائمة . وبينما كنت يقصر نظر المؤرخ على التطور فى الأحوال السياسية ، فإن شيلر يوسع نظره فيشمل الفنون والأديان والاقتصاديات وما إليها .

ـ وخلاصة القول أن النص الذى نقله الدكتور حسين مؤنس للقراء يسجل تقدماً حقيقياً فى النظرية التاريخية ، فى توسيع موضوعها وإدراك خطرها . وقد نشرناه كاملا فيما عدا قطع أفاض فيها شيلر فى بيان الفرق بين المؤرخ المرتزق ـ طالب العيش ـ والمؤرخ الحقيقى ، ولم نر ضرورة لإثباته .

محمد شفيق غربال

إننى لأشعر بالسرور والفخر ، أيها السادة ، إذ أقوم بمهمة تتيح لى أن أكون فى المستقبل إلى جانبكم فى ميدان يفتح للمتأمل المفكر مواضيع كثيرة للتعلم ، ويقدم للرجل العامل نماذج رائعة يستطيع أن يحتذيها ، ويهدى الفيلسوف إلى آراء هامة ، ويهيئ للناس أجمعين من دون تفرقة مصادر زاخرة بأنبل ألوان المتعة : ذلك هو ميدان التاريخ العام ، الرحب الكبير . وإن رؤية هذا الجمع الغفير من الشبان الممتازين ، الذين يجمعهم حولى تعطش للمعرفة نبيل ، والذين أينعت من بينهم بالفعل ملكات كثيرة سيكون لها أثر ظاهر خلال العصر المقبل . كل هذا يجعل الواجب الملقى على عاتقى متاعاً لنفسى ، ولكنه يجعلنى فى نفس الوقت أحس خطورة هذا الواجب وعسره إحساساً كاملا . وكلما عظم قدر الهدية التى على أن أتقدم بها إليكم — وهل يستطيع الإنسان أن يقدم لأخيه الإنسان شيئاً هو أعظم من الحق ؟ — كلما كان على أن أشتد فى الحرص مخافة أن يصغر بين يدى قدرها . وكلما زاد توفز الحياة فى ذهنكم ، وزاد جوهر هذا التوفر صفاء فى هذه الفترة من حياتكم التى تعد أوفر فترات حياتكم الذهنية استعداداً لتقبل ما يلقى إليكم ، وكلما زادت مشاعركم الشابة توقدا وتفتحا ، كلما تطلب منى ذلك زيادة فى الحرص على ألا أخيب رجاءكم أو أتخونكم ، فتذهب من نفوسكم هذه الحماسة التى لا يثيرها فى النفوس إلا نور الحق وحده .

إن ميدان التاريخ خصب واسع المدى ، ففى محيطه يقع العالم المعنوى كله . وهو — أى التاريخ — يصاحب الإنسان فى حالاته الفكرية المتغيرة الصور : فهو يلازمه إذا تصرف من حمق وجهالة ، أو من حكمة ومعرفة ، ويصاحبه إذا ساءت به الحال أو تحسنت . ولا بد من أن يقدم حساباً عن كل ما يأخذه الإنسان ويعطيه

* * *

ولكل منكم من التاريخ جانب ينفعه ، ومهما تباينت الطرق التى سيسلكها كل منكم فى حياته المستقبلة ، فإن هذه الطرق نفسها لا بد أن تلتقى مع التاريخ العالمى فى نظرنا . . وكم تشتركون جميعاً بأنصبة متساوية فى أمر بعينه ، أمر أوجدتموه أنتم بأنفسكم على هذه الأرض ، وهو ضرورة تكوين أنفسكم تكويناً

بشرياً إنسانياً ، فهنا يحييكم التاريخ ، لأن حديثه موجّه للبشر وحدهم .

* * *

إن الاكتشافات التى وفق إليه ملاحونا الأروبيون — فى بحار بعيدة وشواطئ نائية — إنما هى فى الواقع قصة غنية بالفائدة والتسلية فى آن واحد. فهى ترينا شعوباً تعيش معنا على درجات متفاوتة من الثقافة والتكوين ، وهذه الشعوب تبدو لنا وكأنها أطفال متفاوتة أعمارهم يحيطون بإنسان تقدمت به السن ، فيذكر وهو يتأملهم كيف كان هو نفسه فيما مضى من الأزمان ويعرف من أين أتى . ويبدو أن يداً حكيمة حفظت لنا على هذه الشعوب على حالها من الفطرة ، وادخرتها إلى اليوم الذى نكون فيه قد تقدمنا تقدماً كافياً ، لكى نقيس أنفسنا عليها ، ولكى ننتفع من هذا الكشف انتفاعاً طيباً ، وحتى نرى فى هذه المرآة أصلنا البعيد الذى جهلناه . وكم نشعر بالخجل والحزن إذ نحن نرى هذه الصورة التى تعطينا إياها هذه النماذج عن طفولتنا ! وهى — مع ذلك — لا تعرض علينا هذه الطفولة فى أولى درجاتها . . . فقد كان أصل الإنسان أسوأ من هذا وأخس ، فإننا نرى هذه الأجناس وقد صارت شعوباً . . . وقد صار لها كيان سياسى ، ولا بد أن الإنسان قد جاهد جهاداً مضنياً حتى استطاع تكوين جماعة لها كيان سياسى .

بماذا يحدثنا الرحالة عن هؤلاء المتوحشين ؟ لقد وجدوا بعضهم ولا علم لهم بألزم الفنون : لا حديد عندهم ولا محراث ، بل إن بعضهم لا يعرف النار . ولا زال بعضهم فى صراع مستمر مع الضوارى ليحصل عل غذائه ومسكنه . ولم ترتق اللغة عند جماعات منهم — من طور الصياح الحيوانى إلى طور الألفاظ المفهومة — إلا يسيراً جداً . ومنهم من لا يعرف رباط الزوجية البديهى ، وهناك آخرون لا يعرفون الملكية . هناك نجد النفس الإنسانية راكدة ، ونجد الإنسان بعد عاجزاً عن تذكر الأعمال التى يعملها كل يوم ، وإننا لنرى الرجل من المتوحشين يترك المكان الذى نام فيه الليلة دون تفكير ، لأنه لا يخطر له على بال أنه سينام فى الغد . أما الحرب فيعرفونها جميعاً ، وكثيراً ما يأكل الواحد منهم لحم العدو المغلوب . وهناك شعوب أخرى وجدناها أعرف بشؤون الحياة من هذه ، لأن أفرادها ارتقوا درجة أعلى فى سلم الثقافة ، ونحن نجد عندهم صوراً رهيبة من الاستعباد والاستبداد ، ولقد عرفنا واحداً من طغاة إفريقيا يبيع عدداً

من رعاياه بقدر قليل من الخمر . وفى موضع آخر رأينا عدداً من الرعايا يذبحون على قبر الرئيس، لكى يخدموه فى العالم الآخر. وفى بعض النواحى يلقى الإنسان الجاهل التقى بنفسه أمام تعويذة سخيفة ، وفى بعضها الآخر يركع عند قدمى مسخ مشوه الصورة . إن الإنسان يتصور آلهته على هيئة نفسه ، وهذا الإنسان الفطرى يبدو لنا فى ناحية مقيداً يرسف فى أغلال العبودية والجهل والخرافات ، ويبدو لنا فى ناحية أخرى طلقاً يرتع فى حدود من الحرية لا تعرف قانوناً ولا نظاماً . وهو على الأهبة دائماً للدفاع والهجوم ، وهو يصيخ بآذانه ناحية كل صوت يترامى إلى سمعه . . . إذ أنه يرى فى كل جديد عليه عدواً له . . وويل للغريب الذى تقذف به العواصف إلى شاطئه . . ، إنه لن يجد لنفسه مأوى، ولن يظفر بضيافة كريمة ! . وحتى فى النواحى التى وجدنا الإنسان فيها وقد ارتقى من حياة الوحدة التى يروعها الخوف من الأعداء إلى حياة الجماعة ، وانتقل من الحاجة الملحة إلى الرخاء ، ومن الخوف إلى الأمن . . . حتى فى هذه النواحى المتقدمة يبدو لنا الإنسان مخيفاً يستهدف للمهالك . إن ذوقه الفطرى ليجعله يلتمس السرور فى تناول المخدرات ، والجمال فى التشويه ، والهرة فى مجاوزة الحدود . حتى فضائله تبدو لنا منفرة ، وما يراه هو سعادة لروحه لا يثير فى نفوسنا إلا الاشمئزاز والإشفاق .

هكذا كنا نحن أنفسنا ، ولم يجدنا يوليوس قيصر وتاكيتوس على أحسن من هذه الحال قبل ثمانية عشر قرناً .

وأين نحن الآن ؟ لنقف لحظة ساكنين أمام هذا العصر الذى نعيش فيه ، لنتأمل هيئته الراهنة .

لقد استطاع الإنسان بعمله واجتهاده أن يبنى هذا العالم ، وأن يتغلب على الأرض المستعصية، بإلحاحه عليها بالجهد وبفضل ما أوتيه من المهارة . ففى ناحية من النواحى استطاع أن يستخلص من البحر أرضاً ، وفى نواح أخرى شق مجارى الماء فى أراض قاحلة ، وألغى حدود الفصول الزمنية والمناطق الجغرافية ، وعالج النباتات الشرقية اللينة حتى صلبت وعدت تحتمل جوه العنيف القاسى ونمت فيه . وكما حمل هذا الإنسان أوربا إلى الهند الغربية وبحار الجنوب ، فقد استطاع أن يبعث آسيا فى أوربا. والآن تضحك السماء صافية فوق غابات جرمانيا التى اقتلعت أشجارها يد الإنسان القوية ، فنفذت الشمس إلى أرضها .

والآن تنعكس صور العنب الآسيوى فى مياه نهر الراين ، وعلى ضفاف هذا النهر تقوم المدن العامرة بالناس التى تموج جوانبها بالحياة الواعية الفيّاضة بألوان المتاع وبنشاط العمل . هنا نجد الإنسان مطمئناً فى ملكه الآمن وسط مليون من الناس ، وقد كان وجود جار واحد إلى جانبه يؤرقه فيما مضى من العصور . وقد كان الإنسان عند ما انتظم فى سلك الجماعة البشرية قد فقد المساواة ، فعاد الآن واستردها بفضل القوانين الحكيمة . وقد تخلص الإنسان من سلطان المصادفة وقسوة الحاجة التى كانت تقسره وتشتد عليه ، ولجأ إلى حمى العقود الرحيمة ، ونزل عن حرية الوحش الضارى وفاز بحرية الإنسان ، وهى أشرف . وتوزعت همومه توزعاً رحيما عادلا . ولم تعد الحاجة القاهرة تقسره على أن يقف وراء المحراث ، ولم يعد هناك عدو يقهره على أن يترك أرضه التى يفلحها ليسرع إلى ميدان القتال لكى يذود عن الوطن والأهل . فهناك اليوم فلاحون يزرعون ويملأون له أهراءه ، وجنود يقومون بحمايته ، وهناك القانون يحمى ملكه ، وبقى له الآن ذلك الحق الذى لا يقدر بقيمة وهو ، أن يختار الواجب الذى يجب أن يضطلع بأدائه .

وكم من أشياء أبدعها الإنسان فى عالم الفن ، وكم من عجائب تحققت بالجد والعمل ! وكم من نور للمعرفة فاض على كل الميادين منذ أصبح فى مقدور الإنسان أن يحتفظ بقواه فلا ينفقها هباء فى مهمة الدفاع عن نفسه ، وهى مهمة محزنة ، ومنذ أصبح حراً فى أن يتصرف كما يتراءى له فى حالات الضرورة التى لا يمكنه الفكاك منها ، ومنذ انتزع ذلك الحق العظيم القيمة فى أن يتصرف فى قواه كما يشاء ، وأن يتبع نداء ملكاته ! وما أعظم ذلك النشاط الواسع المدى الذى شمل كل شىء منذ حلقت روح الاكتشاف هذا التحليق البعيد تدفعها النزعات الدافعة المتعددة الجوانب ، فأوسعت للنشاط مجالات رحاباً . لقد انهارت الحدود التى كانت تضع بين الدول والشعوب حواجز من الأنانية تفيض بروح العداء ، والآن ترتبط الأذهان المفكرة كلها برباط مواطنة عالمى ، وهذا الرباط يستطيع اليوم أن يوجه النور الشامل الذى يفيض به هذا القرن لينير السبيل أمام جاليليو أو إرزمس جديدين

ومنذ كفت القوانين عن استغلال نواحى الضعف فى الناس تقدم هؤلاء بدورهم للنهوض بالقوانين وأخذت العلاقة بينهم وبينها ترق ، بعد أن كان الصراع

بين الناس والقوانين عنيفاً شديداً ، وأخذت العقوبات البربرية تختفي شيئاً فشيئاً في أطواء النسيان باختفاء الجرائم البربرية نفسها . وخطونا في هذه الناحية خطوة نحو السمو الموموق ، وهي أن القوانين أصبحت تصاغ بروح الفضيلة ، وإن لم تعمر نفوس الناس بعد بهذه الروح . فإذا كانت هناك فضائل تعجز قوة القانون القاهرة عن أن تقسر الناس عليها ، تكفلت التقاليد بإجبارهم على التزام حدودها ، وإذا كان هناك إنسان لا تردعه القوانين ولا يزعه الضمير، قسرته اليوم قوانين الأخلاق والشرف على السير في الطريق القويم

حقيقة إنه لا زالت في زماننا هذا بقايا كثيرة من البربرية تخلفت عن البقية، التي زالت ، وكلها ناتجة عن القهر والعنف اللذين لا ينبغي أن يسمح عصر العقل لها بالبقاء فيه . ولكن — حتى في هذه الناحية — كم أحسن العقل الإنساني توجيه هذا التراث البربري الذي تخلف بين أيدينا من العصور القديمة والوسطى ! كم استطاع أن يجرد من الضرر جميع ما لم يستطع القضاء عليه منه ، بل كم استطاع الانتفاع به ! فعلى ذلك الأساس البدائي الذي قامت عليه فوضى الإقطاع أقامت ألمانيا بناء حريتها السياسية والكنسية ، وهذه هي آثار أباطرة الرومان التي خلفوها في جبال الأبنين ، ها هي اليوم تهيء للناس من ألوان الخير ما يرجح مرات كثيرة مبلغ الضرر الذي أنزله الأباطرة الأول بهذه نواحي . ذلك أن هذه الآثار تحمل في ذاتها عناصر دولة تقوم على الاتحاد والاتفاق Eintracht ، وقد كان هذا النظام في العصور القديمة يضغط أنشط عناصر القوة في الأمة ، ويرغمها على الاندماج والضياع في وحدة Eimformigkeit تسودها روح العبودية . وحتى عقيدتنا — التي أصابها ما أصابها من التحريف والتشويه على أيدي أولئك الذين أوصلوها إلينا في غير أمانة — لا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفلسفة العالية فيها . . . لقد قدم فلاسفة من أمثال « لايبنتس » و « لوك » للعقيدة والأخلاق المسيحية من الخدمات ما لا يقل عما قام به رسامون من طراز « رافائيل » و « كوريجيو » للتاريخ المقدس Dieheilige Geschichte

وأخيراً ، هذه دولنا ! كم من روابط عميقة دفينة تربطها بعضها إلى بعض ؟ إن هذه الرابطة الجديدة التي تدفع إليها دوافع الحاجة وعوامل الخير ، لأقوى بكثير من الروابط السالفة التي كانت تقوم على المعاهدات « الأخوية » ذات الأسلوب الرنان . وهذا هو السلام قائم اليوم، بفضل الأهبة الدائمة للحرب ؛

بل إن حرص الأمم على نفوسها ليحفزها إلى المحافظة على هذه الذهبة الحربية الدائمة ، لأن ذلك ضمان لسلام الآخرين .

وتبدو جماعة الدول الأوربية الآن وكأنها أصبحت أسرة كبيرة ، ومن الممكن أن تقع الحرب بينها ، ولكن المأمول أن لا تعود هذه الدول إلى أكل لحم بعضها بعضاً

ما أكثر ما تتباين الصور التى تبدو أمام أعيننا ! من يصدق أن الأوربى المهذب المصقول الذى (كان) يعيش فى القرن الثامن عشر إن هو إلا أخ للكندى الجديد والكلتى القديم ، لا يفترق عنهما إلا بالتقدم الذى وصل إليه ؟ وفى خلال بضعة آلاف قليلة من السنين تمثلت النفس الإنسانية جميع صور الكمال التى أدركها الإنسان ، ووعت نزعاته الفنية وتجاربه الكثيرة وابتكاراته فى عالم الفكر ، وتأصلت فيها وتطورت . . ، ومن روحه نبتت هذه العجائب كلها فى عالم الفن وعظائم الأعمال التى أدركها الإنسان بالجهد المتصل . فما الذى أيقظ النفس الإنسانية ؟ وما الذى أخرج منها هذه العجائب والأعمال ؟ أى أحوال مرّ بها الإنسان حتى انتقل من ذلك الطرف القصى إلى حالته الراهنة ! من ساكن الكهوف المتوحد إلى المفكر الذكى وإلى الإنسان المتحضر العارف بأمور الدنيا ؟ إن التاريخ العالمى العام يجيبنا على هذا السؤال .

لو أننا نظرنا إلى شعب معين يعيش فى إقليم معين فى مراحل مختلفة من تاريخه ، لرأينا له فى كل حالة صورة تتباين عما سواها تبايناً ظاهراً . . ؛ وذلك التباين لا يقل عن الفروق التى نراها بين طوائف الجنس البشرى التى تعيش فى مناطق مختلفة ، فى عصرنا هذا . أى اختلاف نلاحظه فى العادات والقوانين والتقاليد ! وكم ينتقل الإنسان من الظلام إلى النور ، ومن الفوضى إلى النظام ، ومن السعادة إلى الشقاء ، فى جزء صغير من العالم مثل أوربا ! إننا لنرى الإنسان حراً على ضفاف التاميز ، بعد أن كسب هذه الحرية بسواعده ونراه هنا بين جبال الألب عزيزاً ، لا يخضع لسلطان أحد ؛ ونجده فى مواضع أخرى أعز من أن يهزم بفضل القنوات والمستنقعات . وأما على نهر الويزر Weichoel ، فنراه ضعيفاً شقياً ، بسبب الخلاف الذى يفسد عليه أمره ، بينما نجده فيما وراء البرانس ضعيفاً ، شقياً بسبب الراحة التى ينعم بها . إننا لنجده رخيا مباركاً فى بلد مثل أمستردام لا تنبت أرضها شيئاً ، بينما نلقاه محتاجاً شقياً فى جنة عذراء على

ضفاف الإبرو . هنا نجد شعبين بعيداً أحدهما عن الآخر ، وقد فصل بينهما بحر شاسع . ومع ذلك فهما جاران مترابطان جمعت بينهما الحاجة ونوازع الفن وروابط السياسة ، فى حين أننا نجد هناك شعبين يشربان من ماء نهر واحد ، لكن فرّقَ بينهما اختلاف دينى مذهبى تفريقاً حاسماً (٢٠) .

ما السبب فى أن سلطان إسبانيا امتد حتى عبر الأطلسى ووصل ، إلى قلب أمريكا ، مع أنه عجز عن أن يتخطى نهرى تاجه والوادى آنه . . ؟ ما الذى أبقى كل هذه العروش فى ألمانيا وإيطاليا . . . وذهب بها جميعاً إلا واحداً فى فرنسا ؟ — إن التاريخ العالمى يجيب على ذلك السؤال . (٢١)

وحتى اجتماعنا هنا فى هذه اللحظة ، على هذه الدرجة من الثقافة القومية ، متكلمين هذه اللغة ، آخذين بهذه التقاليد ، مستمتعين بتلك الميزات المدنية وذلك القدر من حرية الضمير . . . . : إن ذلك كله لم يكن سوى نتيجة لجميع حوادث التاريخ العالمى الماضية ؛ وربما احتجنا إلى تعرف تاريخ العالم كله لنستوضح أمر هذه النقطة الواحدة . فوجودنا أنفسنا على المسيحية لم يكن ليتأتى لو أن هذا الدين لم يستقر أمره خلال عدد لا يحصى من الثورات ، ولو أنه لم يتفرع عن اليهودية ، وكان لا بد له من أن يجد الدولة الرومانية على تلك الحالة بالذات التى وجدها عليها حتى يستطيع أن ينتصر وينتشر فى العالم ، ويحل محل القياصرة على عرشهم . وكان لا بد لأجدادنا الفطريين الذين كانوا يعيشون فى غابات ثورنجيا من أن يخضعوا لسلطان الفرنجة حتى يأخذوا عنهم دينهم ، وكان لا بد أن يضل رجال الدين بسبب ما أدركوا من غنى وبسبب جهل الشعوب وضعف الحكام ، وكان لا بد من أن تواتيهم الحوادث على إساءة استعمال جاههم حتى يستبدلوا بقوة الضمير الهادئ — الذى هو أساس جاههم — سيفاً دنيويا . وكان لا بد أن تصب الكنيسة عذابها على الجنس البشرى على يد رجال من أمثال جريجورى وإينوسنت . كان لا بد من ذلك كله حتى يصل فساد الأخلاق واستبداد رجال الدين إلى درجة مثيرة صارخة تدفع براهب أوغسطينى شجاع أن يعطى إشارة السقوط وينتزع من رجال الدين الرومان نصف أوروبا وكان لا بد من ذلك كله حتى نجد أنفسنا مجتمعين على البروتستنتية هنا اليوم . فإذا كان ولا بد أن يحدث ذلك كله ، فلم تكن هناك مندوحة من أن ينهض أميرنا شارل الخامس ويقيم السلام الدينى بحد السيف ، وكان لا بد أن ينهض جوستاف

آدولف لينتقم لنقض هذا السلام، وليقيم على أساسه سلاماً جديداً شاملا يدوم قروناً. وكان لا بد أن تنهض المدن فى إيطاليا وألمانيا، وتفتح أبوابها للجدوالنشاط، وتحطم سلاسل العبودية، وتنتزع عصا الحكم من أيدى الحكام الجهلة، وترغم الناس على احترام حقوقها بفضل جماعة محاربة مثل جماعة العصبة الهنسية. كان لابد من ذلك كله حتى تزدهر الصناعة والتجارة، وحتى تؤدى الوفرة إلى نهوض الفنون، وحتى يعم الرخاء فتنهض الفنون التى تجلب المسرة، وحتى تحترم الدولة المزارع المنتج، وتنظر إلى رجل الطبقة الوسطى العامل النشيط نظرة الاحترام، وحتى تتحقق السعادة الدائمة للإنسانية. ولم يكن هناك مفر كذلك للاباطرة الألمانيين من أن يستنفدوا قواهم فى حروب استمرت قروناً خاضوها مع البابوات والأفصال مدى قرون، وفى صراع متصل مع المنافسين من جيرانهم الحاسدين بل كان لابد لأوربا من أن تتخفف من الزيادة الخطرة التى جدت على سكانها فى قبور آسيا ومن أن تتخلص من كبرياء سادة الأقطاع المتمردين عن طريق أنواع من الكفاح المتلف وفى أثناء الحملات الحربية التى كانت روما تدعو إليها وفى الأسفار المقدسة كان لا بد من ذلك كله حتى تنتهى الفوضى، وحتى تسكن القوى المتنازعة فى الدولة إلى هذا التوازن المبارك. وهو التوازن الذى نشأ عنه ما ننعم به الآن من الرخاء والهدوء. ولم يكن هناك بد كذلك من أن يكافح ذهننا الجهل — الذى سلطه علينا رجال الدين والحكام وأرغمونا عليه — ، لتعود بذرة العلم إلى النمو والظهور، بعد أن طال بها الاختناق تحت ضغط أشد أعدائها لها اضطهاداً. وكان من المحتوم أن يعوض الخليفة المأمون على العلم ما أصابه من فتور.

لقد كان لا بد أن تخرج شقاوة البربرية التى لا تحتمل بأجدادنا من الخضوع لأحكام القضاء — التى كانت تسمى أحكاماً إلهية فى العصور الوسطى — إلى الاستمتاع بالأحكام الإنسانية التى يصدرها القضاة من كراسيهم وكان لا بد كذلك من أن تدفع الأوبئة وهى التى لا تبقى ولا تذر — الإنسان إلى التخلص من أساليب العلاج الخاطئة، وتحدوه إلى تأمل الطبيعة لاكتشاف علاج أحسن. وكان لا بد أن يؤدى الرخاء الزائد الذى كان الرهبان ينعمون به إلى أن يكون إلى جانب الشر الذى أشاعه نشاطهم الدنيوى لون من العوض، إذ أن هذا النشاط الدنيوى تكفل بالمحافظة على بقايا الكتب المبعثرة التى تخلفت فى الأديرة من عصر الأوغسطينيين إلى الزمن الذى ظهرت

فيه الطباعة . واستطاع المتبربرون الشماليون أن يقوّموا أذهانهم المتواضعة بنماذج يونانية رومانية . ومن هنا عقدت الروح العلمية عهداً مع آلهة الشعر ورباته ، فاستطاعت أن تجد طريقها إلى القلوب واستحقت صفة الإنسانية (٣٦) . فإذا وصلنا إلى هذا كان لا بد لنا من أن نسأل : هل كانت بلاد اليونان قديرة على أن تطلع رجالا مثل توكيد يد وأفلاطون ، وارستطاليس ؟ وهل كانت روما قادرة على أن تخرج رجالا من طراز هوراس وفرجيل وشيشيرون وليڤيوس لو لم يكن هذان البلدان قد وصلا إلى هذه الدرجة من الرخاء السياسى الذى أدركاه ؟ أو بلفظ آخر . . . هل كان يمكنهما إخراج هؤلاء العباقرة لو لم يكن تاريخهما كله قد جرى على هذا النحو الذى جرى عليه ؟ ثم... كم من الاختراعات والاكتشافات والثورات فى داخل الدول والكنائس كان لا بد أن تتوافق وتتلاقى حتى استطاعت بذرة العلم والفن الرطبة أن تنمو وتترعرع ؟

وكأين من حرب كان لا بد أن تقوم ، ومن حلف كان لا بد أن ينعقد وينفصم ، ثم ينعقد من جديد ، حتى تهيأ لأوربا أساس هذا السلام الذى يسّر للدول وأهلها السبيل لتركيز اهتمامهم نحو أنفسهم ، وتجميع قواهم وتوجيهها نحو غاية معقولة ؟

وحتى لو أننا تأملنا المواطن العادى فى نشاطه اليومى العادى ، لم نستطع إلا أن نلمح فى حياته مبلغ مايدين به للأجيال الماضية . وإن أشد عصور التاريخ البشرى اختلافاً عن عصرنا تسهم فى حضارتنا كما يسهم أبعد نواحى الأرض فى تهيئة وسائل الرفاهية لنا . وهل كنا نستطيع أن نحصل على الملابس التى نلبسها ، والبهارات التى نضعها فى أطعمتنا ، والمال الذى نشتريها به ، والكثير من أهم ما يلزمنا من الأدوية ، وكذلك الكثير من الأشياء الضارة بنا . . هل كنا نستطيع أن نحصل على ذلك كله لو لم يظهر رجل مثل كولومبوس ويكتشف أمريكا ، ورجل مثل فاسكو داجاما ويصل بسفنه إلى طرف إفريقية ؟

هناك إذن سلسلة طويلة من الحوادث تترابط وتتواصل فيما بين اللحظة الراهنة ومبادىء الجنس البشرى ، سلسلة تترابط حلقاتها بعضها ببعض ترابط الصلة بالنتيجة ؛ ولا يستطيع أن يرى هذه السلسلة كاملة بكل حلقاتها إلا العقل الإنسانى . بيد أن الإنسان فى هذا المجال مقيد بقيود ضيقة (تحول بينه وبين تتبع حلقاتها واحدة فواحدة) : أولا . لأن كثيراً من هذه الحوادث لم تجد

شاهداً أو ملاحظاً من الناس ، أو لأنها لم تتصف بشيء واضح ظاهر ، وفى هذا الباب تدخل كل الوقائع التي حدثت قبل ظهور البشر ، أو قبل اختراع الكتابة. إن مصدر كل تاريخ هو الرواية ، والرواية لا تكون إلا عن طريق اللغة . فكل المرحلة التى سبقت اللغة حلقة مفقودة فى حساب التاريخ العالمى ، على الرغم من أنها كانت غنية بالنتائج للعالم . وثانياً : لأنه حتى بعد أن ظهرت اللغة ، واستقامت بذلك الوسيلة لتسجيل الحوادث وتبليغها ، كان هذا التبليغ يتم عن طريق الرواية الشفوية ، وهو طريق غير ثابت وقابل للتحريف ، فكانت أخبار الحوادث تنتقل من فم إلى فم فى سلسلة طويلة من الأجناس ، فكان لا بد لها من أن تعانى التحريف لأنها تنتقل محرفة عن طريق قابل للتغير . ومن هنا كانت الرواية الحية أو الرواية الشفهية مصدراً لتاريخ لا يمكن التعويل عليه ، ومن هنا أيضاً كانت أخبار الحوادث التى وقعت قبل استعمال الكتابة قليلة القيمة كالتى ضاعت سواء بسواء . وثالثاً : ثم إن الكتابة نفسها ليست بمخلدة ، وما أكثر آثار العصور القديمة التى تعاون عليها الزمن والحدثان حتى زالت من الوجود ، ولم ينجُ من آثار العصور الخوالى ويصل إلى زمن المطبعة إلا حطام قليلة ، ومعظمها لا نستطيع الاعتماد عليه فى استخراج النتائج التى كان ينبغى أن يقدمها لنا ، وهى من هذه الناحية كالمفقودة بالنسبة للتاريخ العالمى . ورابعاً : وأخيراً نجد أن أعظم جانب من هذا القليل الذى صانه لنا الزمن أصبح أعسر من أن نتعرف عليه بسبب ما يطغى على كتابات من تحدثوا عنها من العاطفة المسرفة أو من قلة الفهم ، بل ربما كان سبب ذلك فى بعض الأحيان عبقرية المتحدث نفسه . وإن هذا الشك ليصاحبنا ونحن نتأمل أقدم الآثار التاريخية ، ويلازمنا ونحن نقرأ تاريخاً مكتوباً من أيامنا هذه . وإذا كنا — الآن — نسمع ما يقوله الشهود عن الحوادث التى تقع فى أيامنا بين ناس نعيش معهم ، وفى البلد الذى نسكنه ، فنجد صعوبة فى استخراج الحقيقة من رواياتهم ، لكثرة ما يشوبها من الاختلاف والتضارب ، فكيف نستطيع أن نتعرف ما حدث لشعوب عاشت فى أزمان سحيقة بيننا وبينها من الخلاف فى العادات ما يعدل فى اتساعه شقة الآلاف من السنين التى تباعد بيننا وبينها ؟ إن النزر اليسير الذى بقى بين أيدينا من أخبار الحوادث بعد ضياع ما ضاع إنما هو مادة التاريخ فى أوسع مفهوماته ، فأى عناصر هذه المادة التاريخية وكم منها يدخل فى ميدان التاريخ العالمى ؟

يبدأ المؤرخ فيستبقى من عداد هذه الحوادث تلك التى يكون لها أثر هام ظاهر غير مشكوك فيه على هيئة العالم الآن، وحالة الجيل الراهن من الناس. وإذن فالعلاقة بين واقعة تاريخية وهيئة العالم اليوم ينبغى أن تعتبر مادة للتاريخ العالمى، فينبغى تحصيلها. فالتاريخ العالمى إذن يبدأ من نقطة مضادة للنقطة التى يبدأ منها العالم. إذ أن الاتجاه الحقيقى للحوادث يسير مع الأشياء من أصولها، ويصعد معها إلى آخر تطوراتها، أما مؤرخ التاريخ العالمى فيسير من العالم الراهن نحو أصول الأشياء. وعند ما ينتقل المؤرخ بذهنه من العام أو القرن الذى يعيش فيه إلى الذى سبقه، وعند ما يضع يده على الحوادث التى كان لها أثر على العصر الذى تلاها، ويميزها من بين الحوادث التى يلقاها فى هذا العصر السابق، عند ما يسير هذا على الأسلوب حتى يصل إلى أوائل آثار الغابرين — لا إلى أوائل العالم، فهذا مستحيل — إذا فعل ذلك كان عليه أن يعود أدراجه خلال الطريق الذى سار فيه، مستعيناً بالخيط الهادى الذى يربط هذه الحقائق البارزة، ويمضى صعداً من أول الآثار إلى العصر الأخير. وهذا هو تاريخ العالم الذى بين أيدينا، والذى سيدور الحديث إليكم عنه (٤١)

ولما كان تاريخ العالم يتوقف على ما لدينا من المصادر كثرة وقلة، فلا بد أن نلقى فى سياقه فجوات، حيث توجد مراحل خالية من الرواية. وكما تتفرع التغيرات العالمية بعضها من بعض على نحو قهرى معين متناسق، وكما يتتابع بعضها من بعض تتابع ضرورة ولزوم، فكذلك لا بد أن يترابط بعضها مع بعض فى الرواية التاريخية وتتصل فى سياق واحد؛ ومن هنا نلاحظ أن هناك بين سير العالم وسير تاريخ العالم اختلافا ظاهراً بيناً. ذلك أننا يمكننا أن نشبه سير العالم بنهر متدفق غير متوقف، أما التاريخ العالمى فلا يلمح الإنسان فى مسيره موجة إلا بعد الحين والحين. ثم إنه لما كان من الممكن أن يحدث أن العلاقة بين حادث بعيد وبين الحالة الراهنة تستلفت النظر، قبل أن تستلفته العلاقة التى تربط هذا الحادث نفسه بحوادث سبقته، أو وقعت معه فى نفس الوقت، فكذلك لا نستطيع أن نتجنب أن حوادث ذات ارتباط وثيق بأحدث الأزمنة تبدو — فى كثير من الأحيان — وكأنها منعزلة عن حوادث العصر الذى حدثت فيه. ومن الحقائق التى تعتبر مصداقاً لذلك أصل المسيحية، ومنشأ نظرية الأخلاق المسيحية بصفة خاصة. فالعقيدة المسيحية تقوم فى العالم الراهن بدور يبلغ من

أهميته ما يجيز لنا أن نقول إن ظهورها كان أهم حادث فى التاريخ العالمى . ولكننا لا نجد فى العصر الذى ظهرت فيه ولا بين القوم الذين ظهرت بينهم ، تفسيراً مقبولا لسبب ظهورها ، وذلك بسبب قلة المراجع .

وعلى هذا الأساس لم يكن من الممكن أن يصبح تاريخنا العالمى إلا مجموعاً من الكسر Bruchstucken ، ولم يكن من الممكن أن نسميه علماً . ولكن العقل الفلسفى يخف لعون التاريخ والأخذ بيده ، ويمضى يصل هذه الكسر ويربط بين بعضها وبعض بوصلات صناعية ، حتى استطاع أن يخلق من مجموع القطع نظاماً ، وأن يجعل منها « كلا » معقولا مترابط الأجزاء . وأعان العقل على ذلك ما نعرفه من القانون الطبيعى والطبع الإنسانى من تماثل ووحدة مستمرة ، وهذه الوحدة هى السبب فى أن الحوادث التى وقعت فى أقدم الأزمنة فى ظروف معينة تعيد نفسها فى أحدث الأزمنة إذا تحققت لها ظروف مشابهة أى أن الحوادث الراهنة التى تقع بين أبصارنا تلقى ضوءاً كاشفاً على تلك الحوادث التى وقعت فى الأزمنة التاريخية السحيقة وضاعت أخبارها ، وتساعدنا على الوصول إلى آراء فيها . إن طريق القياس يصدق على التاريخ كما يصدق على غيره من العلوم ، ويعيننا فى ميدانه عوناً عظيما . ولكن ينبغى أن يبرر اللجوء إليه والاعتماد عليه هدف عظيم ، ولا بد حذر بالغ عند استعماله لاستخراج الأحكام والآراء .

ولا يستطيع الذهن الفلسفى أن يصبر على مادة التاريخ العالمى طويلا ، لأنه لا يكاد يمضى فى الدراسة حتى يشعر أن دافعاً جديداً يبدأ يشغل نفسه ، وهو دافع يحفزه على التوفيق بين الحقائق التى يجدها ، ويحركه بقوة لا تقاوم نحو تمثل كل شىء حوله فى طبيعته العقلية ، ويحمله على أن يتعرف لكل ظاهرة يلقاها أبعد آثارها ، وأن يحيل كل شىء إلى أفكار . وكلما قام الذهن الفلسفى بمحاولة ربط الماضى بالحاضر ووفق فى ذلك ثم توالى توفيقه ، كلما وجد نفسه ميالا إلى أن ينظر إلى ما يعتبره عادة علة وتأثيراً على أنه فى الواقع وسيلة وغاية ، ويجتهد فى الربط بينهما . وهنا تبدأ الظواهر ظاهرة بعد أخرى تخرج من حالة الحرية التى لا يقيدها قانون وتنتظم فى كل متوافق (لا يوجد فى الواقع إلا فى خياله) ، وتجتمع كلها فى كيان متناسق . ولا يلبث المتأمل إلا قليلا حتى يحس أنه من العسير عليه أن يقنع نفسه بأن هذه السلسلة من الظواهر التى وصلت فى

تصوره إلى درجة كبيرة من الانتظام والاتفاق فى هدف واحد ، تفقد فى عالم الحقيقة هذه الخصائص ، ويعز عليه جداً أن يسلم هذه النتيجة التى تجلت لنور عقله إلى سلطان الضرورة الأعمى . ومن هنا يشرع فى أن يضفى هـذا التوافق والانسجام الذى يشعر به فى قرارة نفسه على نظام الأشياء ، أى أنه يخلق لسير الدنيا قصداً حكيما ، ويتبين فى تاريخ العالم أساساً يقوم على فاعلية عقلية . وعلى هذا الأساس الجديد يعود ليتأمل هذا التاريخ العالمى مرة أخرى ، ويقف ليمتحن صحته — أى صحة هذا الأساس — أمام كل ظاهرة ، ليرى بماذا يخرج من هذا الميدان الحافل . فيجد الأساس الذى وضعه يصدق على ألف واقعة ، ويخيب مع ألف آخر (ولكنه يتريث فلا يصدر حكماً عاماً) ، إذ لا زالت تنقصنا حلقات كثيرة هامة لا بد منها لربط سلسلة التغيرات العالمية بعضها ببعض . ثم إن مصير عدد كبير من الحوادث لم يتقرر بعد ، ولهذا ينتظر المؤرخ ، ويقرر أن الموضوع لم يحسم بعد ، وبهذا تكون الغلبة آخر الأمر لذلك الرأى الذى يمنح العقل أرفع جانب من الرضا والقلب أعظم جانب من السعادة .

ولست فى حاجة إلى أن أقول إن كتابة التاريخ العالمى على هذا الأسلوب الأخير لا يمكن أن تتم إلا فى أزمنة متأخرة (لم تأت بعد) ، ولو أن المؤرخ تعجل أثناء هذه الطريقة قبل أن تحين الفرصة المناسبة لتعرض لخطر كبير وهو أن يحاول أن يقسر الحوادث على الانتظام فى سلك واحد ، وبهذا يؤخر الأزمنة السعيدة التى نتمناها إلى أزمنة أبعد من حيث أراد أن يعجل مجيئها .

ولكننا لا نظن أننا نسبق الأوان حينما نستلفت الانتباه إلى هذه الناحية المنيرة التى أهملها الناس من التاريخ العالمى ، وهى ناحية ارتباطه بالهدف الأعلى الأخير للجهود الإنسانية كلها . إن مجرد تثبيت الباحث نظره نحو هذا الهدف السامى ليعطى همته حافزاً وراحة لذيذة ، ولو لم يكن إدراك هذا الهدف مؤكداً . إن المؤرخ ليشعر أن أقل جهد يبذله إنما هو شىء هام ، حينما يجد نفسه فى الطريق الذى يؤدى — أو يؤدى بمن يأتى بعده — إلى الوصول إلى تفسير لمعضلة نظام العالم ، وحينما يشعر أن السير فى هذا الطريق يتيح له فرصة الاتصال بالعقل الأعلى ، وتأمل أسلوبه الخفى فى العمل ؛ وعلى هذا الأسلوب سنعالج أمامكم أيها السادة دراسة التاريخ العالمى ، إن ذلك الجهد لشائق ، ومثمر فى نفس الوقت ، وسيوقد

فى عقولكم النور ، وسيثير فى قلوبكم حماسة خصيبة ، وسيصرف أذهانكم عما اعتادته من النظر العادى الصغير للمسائل الأخلاقية . وهذا الأسلوب إذ يبسط أمام أعينكم اللوحة الضخمة التى تمثل الأزمان والشعوب ، سيجنبكم خطر الأحكام السريعة التى تصدر وحى اللحظة ، وخطر الأحكام المحدودة التى تصدر عن الأنانية . وهو إذ يحاول أن يعوّد الناس النظر إلى الماضى كله وفهمه ، واستخدام النتائج التى يخرجون بها من هذا النظر إلى الماضى فى التطلع إلى المستقبل البعيد والإسراع نحوه ، إن المؤرخ إذا نظر إلى التاريخ على هذا الأسلوب تلاشت أمامه حدود الميلاد والموت — وهى الحدود التى تحصر حياة الإنسان فى مجال ضيق خانق — ، واتسع مجال الحياة أمام بصره اتساعاً يقوم على خداع النظر ، وامتد وجوده القصير وأصبح مدى واسعاً لا نهاية له ، وعبر بالإنسان دون أن يشعر إلى ما وراء حدوده واستطاع النظر إلى « النوع » كله .

إن الإنسان ليتغير ويختفى من المسرح (مسرح الحياة) ، وإن آراءه لتختفى وتتبدل معه . ولكن التاريخ وحده يبقى فى الميدان ، وكأنه مواطن خالد فى كل الأوطان والأزمان . وهو — أى التاريخ — يلقى نظرة مستبشرة فيها الكثير من عدم الاهتمام على أعمال الحروب الدامية وعلى الشعوب الفطرية المسالمة التى تتغذى بلبان قطعانها ، كما كان يفعل الإله زيوس فى أساطير هوميروس. والتاريخ ينظر أيضاً فى هدوء إلى الفوضى التى تنجم عما يبدو لنا من سير الأحداث على غير قاعدة ، ومن حرية فى التصرف كما يشاءون . والعلة فى نظرة التاريخ هذه هى أن نظره شامل يمتد إلى بعيد ، فهو يرى كيف تنحرف هذه الحرية التى لا تسير على قانون وترغم على العودة إلى الحدود القاهرة . والتاريخ يكشف للإنسان فى سرعة عما يكنه من الجزاء لرجل مثقل الضمير من أمثال جريجورى وكرومويل ، ويريه كيف « إن الإنسان المحب لنفسه يستطيع أن يستهدف أغراضاً دنيئة ، ولكنه يحقق أعمالا عالية دون أن يشعر »

هذا ولا يعشى بصر التاريخ لمعان كاذب ، ولا يضله عن طريقه رأى متأصل خطر شائع فى زمن من الأزمان ، لأنه — أى التاريخ — باق بعد أن تنتهى مصائر الأشياء كلها . وهو ينظر إلى كل ما يتوقف على أنه شىء لم يدم إلا مدى قصيراً ، وهو يدخر تيجان أغصان الزيتون ناضرة لمن كسبوها ، ويحطم المسلات التى أقامها الغرور . وهو إذ ينظر إلى العجلات الدقيقة التى

تحرك بها يد الطبيعة الساكنة قوى البشر من أول الزمان تحريكاً مستمراً ، وهو إذ يعين كذلك ما سيتحقق فى كل زمن من الأزمان من برنامج الطبيعة الأكبر ، إنه إذ يفعل ذلك كله إنما يعيد الوضع الصحيح لميزان الأمور الذى يحرفه الجنون الذى يسود فى كل قرن على نحو خاص . إنه يحول بيننا وبين الإعجاب المبالغ فيه بالماضى ، ويمنعنا من ذلك الحنين الحقيق بالأطفال نحو الأزمنة الماضية ، وهو إذ يظهرنا على الخير الذى ننعم به ، يجعلنا لا نعود نتمنى عودة العصور الذهبية التى يقدرها الناس تقديراً عظيما كعصرى الإسكندر وأغسطس

ولقد حاولت العصور السابقة كلها أن تتعجل الوصول إلى عصرنا الإنسانى دون أن تشعر ، ولكنها لم توفق . أما نحن ، فإننا نملك كل الكنوز التى تعاون على تحقيقها الجهد والعبقرية والعقل والتجربة ، منذ أبد الدهر . وسيعلمكم التاريخ كيف تقدرون النعم التى لا نشعر بها ، بسبب اعتيادنا إياها وكسبنا لها دون جهد ، فمضينا لا ننظر إليها بعين العرفان ، مع أنها فى الواقع نعم جادَ فى سبيلها أحسن الناس وأنبلهم بدمائهم ، ولا زالت عليها آثار هذه الدماء ، مع أنها خيرات لم تدرك إلا بعد عمل مجهد استمر أجيالا متوالية . ومن منكم ممن وهبه الله عقلا نيراً وقلباً حساساً يستطيع أن يذكر دائماً هذا الواجب الرفيع (الملقى على عاتقه كمؤرخ) ، دون أن يتحرك فى نفسه دافع عميق إل أن يقدم للأجيال القادمة شيئاً يخفف به ثقل ذلك الدين الثقيل الذى تدينه به الأجيال الماضية ؟ لا بد أن يثور فى نفوسنا شوق نبيل إلى إضافة شيء إلى تراث الحق والأخلاق والحرية ، لأنه تراث تلقيناه عن العوالم الماضية وعلينا أن نسلمه إلى من يأتى بعدنا ، لكى نستطيع بذلك أن نثبت وجودنا فى هذه السلسلة الخالدة التى تترابط حلقاتها عن طريق أجيال البشر ؟

ومهما يكن الطريق الذى يسلكه كل منكم فى الحياة ، فإن كلا منكم — جميعاً — يستطيع أن يضيف إلى هذه السلسلة شيئاً . إن كل كسب يكسبه الإنسان إنما هو طريق يفتح أمامه نحو الخلود ، وأقصد الخلود الحقيقى الذى يحيا فيه العمل ويخلد ، حتى لو كان اسم صاحبه قد منطويا فى أطواء النسيان .

مترجمة

حسين مؤنس